شعراء ... مع الزيف !

بقلم محيي الدين محمد

صدر ديوان . ديوانان . ثلاثة .. ثم نقد ديوان . ديوانان . ثلاثة .. فما هي القضايا التي أثارتهـــا قصائد الدواوين ؟! ولماذا كان قائماً الى حد مزعج ، هذا السد الضخم بين ارادة الشاعر وسلوكه ؟!

الشعر قضية .. سلاحه : كلمة وسلوك .. ميدانه : القلب والذراع .. الشاعر انسان .. قضيته تسير على قدمين .. مشكلة تجسدت في حماسة ووعي ودفاع ..

الانسان العادي الذي هو انت وانا .. يملك سلوكاً واحداً ، سلوكاً واحداً هو ما يجعله هو ، سلوكاً يتألف من وعي وفعل .. فاذا ما انحرف هذا السلوك وتناقض مع الوعي حكمنا عليه بالزيف .. لأن الانسان ليس الا ارتباكاً بين داخله وخارجه ..

ارادة في الداخل تضع للقضايا مكاناً معيناً ، وحلا معيناً ، وكفاحاً معيناً ، ويباشر هذا الحل والكفاح المعينان عملها بالسلوك — في الخارج — والذي هو الحضور الدائم ازاء تناقضات الخارج ..

والشاعر هو الانسان ، وغناؤه هو تعبير عن قضية تخصه ، تعبير عن معركة يعبئ لها ذاته .. في كل لحظة من لحظات وجوده .. انه حضور مستمر ، في عالم حاضر ..

* * *

صدر اخيراً ديوان (الطين والأظافر لمحي الدين فارس) * ومن قبله صدر (عبير الأرض) ومن قبله (قصائد من السودان) ومن قبله (أغاني افريقيا) ومن قبله (١) ..

دواوين .. قضايا .. مشاكل مثارة ..

وكل ديوان يحمل في صميمه ازدواجيته التي تقتله ، وزيفه الذي لا شك فيه ..

ولما كنا في خشية ان نتهم بالكلام هكذا في المطلق .. فهاكم ما هو اكثر تحديداً ونسبية ..

ان الشاعر (محي الدين فارس) هو صديقي .. صديقي منذ اعوام ثمانية .. صديقي الذي اراه واسمعه كل اسبوع ، والذي اعرفه كقفازي .. واعرف انه (اثنان) ..

اعرف انه شاعر ، وبشر .. وسلوكه في احدهما مخالف تمام المخالفة لسلوكه في ثانيهما .. لأنه يعبر بانفصال الرجل فيه عن مشاركته المتسمة بالفعل والاستمرار والعناد والصلابة لمآسي وطنه .. برغم مشاركة الشاعر فيه ! !

فلنناقش اولا (فارس) الشاعر .. الذي يتخذ من معظم قصائده طابع (الفارس الحقيقي) الذي يكربه الاستعمار وقضية استخدام الزنجي ، والفوارق الجلدية العنصرية .. وينادي افريقيا ويسألها النهوض في وجه المذلة الأوروبية الأمريكية ويغني لشعبه الصامت الذليل ، صائحاً منذراً مشيراً ومهدداً . ذلك لأنه يتبنى قضية .. يشارك في الم شعب ومهانة شعب .. اليس الشاعر اغنية مسؤولة عن طوفان الأفكار في عصره ؟!

ان (فارس الشاعر) ، هو انسان حقيقي ، يدرك الم (لوسي) الذي هو بدون حقد ، ويعرف رغبتها في ان تكون مساوية لرفيقها الأبيض في الحقوق ، طالما هي مساوية لـه في الواجبات .. يدرك رغبتها في ان تكون ضمن صفوف الطلبة في (الاباما) .. ويعي المعنى العميق لرقصة زنوج (الشلوك والدنكه) ودعوتهم لانهاض القارة السوداء بالعنف والقوة ..

ان قضيته واضحة .. وهي قضية (بروكس وسيدار) .. مهلا ! ! ولكني اقترب جداً من النتيجة النهائية لمقالي .. !

فلنناقش ثانياً (فارس الانسان) .. الرجل الذي اعرفه .. فارس الانسان ! ! الذي (يسكر) بثمن مئة نسخة من

يعالج الكاتب في هذا المقال قضية ازدواجية الشاعر في فنه وفي حياته — ونحن ننشر هـــذا البحث لنفتح به مجال النقاش ، من غير ان يكون في نشره تعبير لرأينا او موافقة لآراء الكاتب .

« قلم التحرير »

---

* يناقش الديوان ، والمقدمة ، في مقال مستقل ..

(١) كلها يحمل طابع « ديوان الشعر ... » وكلها في قيمتها الفنية بسعر التراب .. ! !

الديوان .. (الحالم) الذي يحلم بعشيقة وعربة وطابق بأكمله في بناية على النيل .. (الوادع) الذي يقضي خمس ساعات كل يوم جالساً يلعب النرد والطاولة .. وبقية اليوم متناوماً فوق مقعد وثير بالنادي ..

الرجل الذي لا يشارك في قضية سياسية او اجتماعية .. لأنه اسمى من ان يشارك بالفعل .. « لا يا سيدي .. انني شاعر .. فلماذا التمس في النقاش والعمل معنى ! ؟ ان قضيتي هي الشعر بالذات .. ! ! »

ان معنى قضيته ينتهي في اللحظة التي تسقط فيها عنه القصيدة كثمرة الجوز .. ! لأنه شاعر .. ولأن مفهومنا عن الشاعر ، هو انه يغني .. هو انه (يقول) الشعر .. ! !

فلماذا (نقول) الشعر اذن ؟! ما هو الشعر .. ما هو الفن ! ؟ ولكيما نقترب من النتيجة النهائية نقول : ان الشاعر القضية ، يتناقض مع الانسان العفوي ، لأن احدهما في النهاية .. مزيف ..

فأيهما المزيف يا ترى ؟ ! !

ليس سلوك الشاعر نابعاً من الانفعال التالي لاخراجه للقصيدة . اليس كذلك ! ؟ ان هذا يعني ان القصيدة هي انفعال مباشر لحضور الشاعر ازاء قضية .. وهذا يعني بالتالي امكان تصيّدنا الشعر .. والفن . ! الفن دعوة اكساب لمعنى . انماء لوجود .. اغناء لمشاعر .. ويمكنه ان يكون اشارة لنزال . الفن قضية الفنان الخاصة ، فليس هناك فن مجرد .. هناك فن هذا الفنان بالذات .. فن (روبنز و روبصون وريلكه وموورافيا) .. فن خاص هو مشكلة كل فنان على حدة ..

الا يختلف رأس الساحر هذا المنحوت في صخر المكسيك عن هذا الرأس الرائع (للدونا ايزابيلا) ؟ ومع ذلك فهما الفن بالذات .. هما التفسير الذي لا يفسر لمعنى (الفن) ، هذا الحاشد بالمعنى واللامعنى ..

الفن هو شخصي .. موجه الى اللاشخصي .. — وليس يعني هذا (اللامتعين) — .. انه موجه ، ولذلك فهو دعوة ، وهو قضية ، وهو كفاح ..

ان الفن ليس خادماً لغرض الفنان . انه نفسه غرض يتنفس من خلال سلوك الفنان ذاته .. ان الفن هو اهتزاز جفن ، وتوتر اعصاب .. مرض وعافية في صلب عضوية الفنان .. فكما ان لكل انسان معدة وسلسلة فقرية وكيداً .. فللفنان فن .. وهو ذاته ..

ومن اجل ذلك يغني هو ويصور ويكتب .. لأنه انسان بزيادة (عليك علامة +) ، ومن اجل ذلك بالذات فهو رؤية ابعد ، ومجال ارحب ، ووعي اعمق ..

الفن دعوة فنان .. والفنان هو هو قضيته .. !

ولكن (محي الدين فارس) الرجل .. ليس هو (فارس) الشاعر (١) .. لأن حداً فاصلا يقطع بين الزمان الضئيل الذي يؤلف فيه قصيدته ، والفترة الطويلة الباقية ، والتي يقضيها في خموله الفكري ..

هناك (فارسان) يتنازعان قصائد (الطين والأظافر) . الانسان والشاعر .. واحدهما مزيف كخمر رخيصة .. فأيهما هو ؟ ! .

فارس الانسان : يعيش حياته الرمادية التي لا لهيب فيها .. زاده حلم بالاغتناء المادي .. وعشيقة سمراء ، وضياء قان من لا مكان ! . حلم رجل .. حلم انسان متعب فقير ، يرغب ان ينتمي — ولو للحظة — الى الأرستقراطية المرفهة .. انه انسان صادق .. لأنه يعبر عن داخله .. فارس الشاعر : وحي مفاجئ في دقائق .. بطولة ووطنية لمدة ساعة ..

.. تمثّل القصائد ؟ ! قد يعتذر الشعراء بأنهم يختزنون موادهم ويناقشونها ، ويرتبونها ويعيدون تأليفها ويراجعونها في اوقات طويلة ، وعصبية ..

ولكن هذا كان نفس عمل (لوركا) ! لوركا الذي مات .. لوركا الذي قتلوه .. لأنه كان يسلك سلوك الرجال الذين غناهم في شعره ..

لأنه كان وظيفة . حيث كان أغنية ، لأنه لم يزدوج ، مغنياً احياناً ضد الفاشية . ثم قابعاً في داره الأندلسية . يغازل الجارات ، ويبدل سمراء بشقراء .. بلى .. انكم تلاحظونني ابتعد . ؟ نعود (للشاعر) . ! !

ان فارس الشاعر هو ضد الاستعمارية الأمريكية ، وضد الاحتكارية الانكليزية في افريقيا ، ضد تدشين العقلية الفجة ، ببقايا النظم المنحلة في الغرب .. ضد تنصير الافريقي بالنار

---

(١) ينبغي ألا يفهم من هذا أنني مناقش (لفارس) فحسب .. فالمقال يحتاج ضحية .. ولم أجد سوى صديقي . ، ولكن الواقع يدل بشمول هذا النمزق والإزدواج عند كافة شعرائنا .. لأنهم يصدرون عن قصية شفهية .. !

والحاكي والفونوغراف ، واطقم الأسنان (١) والكي فوق الأصداغ وانتزاع الألسنة . ضد (الكوكلكس كلان) وعصبيتها المدمرة ، وصليبها المشتعل . ضد (لوسي) في جامعة ، و (ماك) في جامعة اخرى .. ضد طبيب واحد لـ ٣٠,٠٠٠ زنجي من مزارع القطن .. ضد بصقة في الهواء ومشنقة .. من أجل اغنية .. ضد كرسي كهربائي لزوجين محبين ، لأنهما يمنحان ودهما لكل العالم .. لكل البشر ..

انه ضد هؤلاء .. لأنهم يقفون ضد الناس ..

انه يعلن في شعره (!) انه مع الانسان .. وفي سلوكه انه ضد الانسان .. لأنه — في الحقيقة — لا يعنيه مع من هو .. اذ تكفيه (زجاجة وسكي) ، او هزيمة الخصوم في مباراة نرد ..

وما الفائدة ؟! اليس يكتب شعراً .. ما فائدة ان يصرخ ويحارب . ؟ اليس يكفي ان يعلن حربه في قصيدة ! ؟

قل لي .. ما فائدة ان اجادل الناس واقنعهم . ؟ ما فائدة اذا تكلم في كل مجتمع عن مساوئه ؟ !

دعونا نتكلم عن النساء الحمريات .. عن ليل بدون صباح في احضان امرأة ممتلئة .. عن وجبة عشاء وخمر حقيقية .. عن نزهة في مساء .. تكلموا عن اعدائي في مباراة الطاولة. اما عن (الاذاعة) فانا كفيل بها .. لقد اذاعت لي قصيدة .. وقال المعلق . ! !

ان اولئك .. ! !

من هو المزيف هنا . ؟ أهو الشاعر الذي يخطب ليغير أمة. أم الرجل الكسول الراغب في المتعة ؟!

بدون شك.. وبدون لحظة تفكير..: انه الشاعر.. انؤمن بسلوكين .. تبريراً لقضية . ؟!

انني لا استطيع ان ادع هذا (المثال) يقودني ، ويكتب الشعر لي .. يوجهني .. ويوجه حياتي .. وحياة الآلاف ممن لا يعرفونه ..

ان هذا زيف من اوله ! .. انؤمن بسلوكين ! ؟

أبداً . ! اما ان نموت مدافعين عن قضية شعب ، مؤكدين سلوكنا هذا الواحد ، والذي يفرض معناه في لحظات بعثي للقصيدة ، وفي لحظاتي الأخرى .. بين الناس وفي العالم. في المقاهي ، وفي بيوت الأصدقاء .. في الطريق ، في كتابتي ، في حديثي .. في بيتي .. ازاء ابي ورئيسي واعدائي .. ضد النقاد واصحاب دور النشر والصحف .. ازاء كل هؤلاء .. اما ان يكون سلوكي واحداً ما دمت امثل قضية .. واما وجب ان اكف عن (تمثيل) سلوك القائد المثير الثائر الحر ..؟ ما دمت احيا حياتي الأخرى متمنياً رغبة سطحية من رغائب البشر العاديين والتي هي امرأة او سفرة الى الاسكندرية مع عشيقة ، او تدخين سيجارة حشيش بعد زفاف ممل ..

اظنني واضحاً جداً ..

قتل مغنون فرنسيون اثناء المقاومة . قتلوا بعد تعذيب وحشي في معسكرات (داخاو . كراكوف) : انتزاع الأظافر . فقء الأعين. حجرات الغاز .. الكلاب الوحشية .. بتر الأطراف وعرضها ..

مغنون من قرى على (الجارون) و (السين) .. مغنون شبان ، ينشدون (في سبيل فرنسا ..) ويحملون البنادق .. ويضعون رؤوسهم فوق الأسلاك المكهربة ..

وقتل في اسبانيا آخرون من احفاد (الروبادور) يغنون ، قادمين من البرانس او غرناطه ، واحياناً من الطرف القصي للخليج الشمالي ..

شعراء قرى ، لا يعرفون الا بئر القرية والبلابة الوحيدة التي تطل من حان (بدرو ارماندريس) ، وفتاة القرية (انجيلا) التي تحمل في وجهها عيون اسبانيا كلها . ؟

شعراء قرى لا يعرفون الحرب ، ولا الفاشية ، ولا (فرانكو) ، وقد يقدمون له في سخاء عربي قنينة من نبيذ (مالاغا) اذا ما قابلوه في طريق . ؟

شعراء من الزيف .. ولكنهم قتلوا لأنهم لم يزدوجوا ..

لأنهم سلكوا سلوكاً انسانياً .. مع البشر .. ضد الاحتكار. قتلوا لأنهم يعرفون هذا : نحن نغني في سبيل (ميجويل وماريا وكارميلا) نغني لهم ونموت في سبيلهم لأن معركتنا هي غناؤنا بالذات ..

لأن حياتهم كانت شعرهم. كانوا يصدرون عن قضية معاشة ..

فتصوروا لو كان يغني لشبان قريته ضد الفاشية ، وضد فرانكو ، وهو قابع في قريته يضاجع النسوة والفتيات .. ! ؟

---

(١) يحكى عن مبشر أنه بسبيل الدعاية للدين المسيحي أخرج لقبيلة مخلوعة اللب ، طاقم اسنانه ، ثم أودعه فمه مرة أخرى .!

وكم كانت نتيجة هذه الحملة التشبيريه مذهلة .!

انني أقترب .. ! !

ان ديوان (الطين والأظافر) وثلاثة ارباع الدواوين التي صدرت وتصدر ، هي في المأزق عينه لأنها تمثيل وزيف ؛ لأنها تعبر عن حالة انفصال بين الشاعر وبين تمثله لمعنى الشعر . والى ان يلتئم هذا الصدع الخطير في بناء الشاعر النفسي .. فانني اتصور رجلا ذا ساوكين مختلفين ، أضحكنا ذات مرة في رواية سينمائية لأنه كان يعيش ساعة . ويمثل انه يعيش ساعة اخرى .. !

ليست هناك حياتان .. ليس هناك سلوكان . ! !

اننا هنا في الشرق .. حيث هو واجب وحتمي ان ننبذ الجمالية التي تخبط فيها (كيتس . بيرنز . سيتويل . برتون . رامبو) . في الشرق حيث يموت الوف بتأثير التيفوئيد والسل والخرافات .. وحيث يملك الافـدة . نصابون من المدينة يرتدون عمامات خضراء . ويحملون سيوفاً من خشب .. حيث يمنح البركة ضريح من النحاس الأصفر . يرفع له المئات اذرعتهم التي نخرها وبلاها فقر الدم .. والبلهارسيا .. حيث تتخذحفلات (الزار) المجنونة ، المظهر الفريد لتطبيب القرن الصفر .. عندما عبد المتوحشون الدم والبرق .

هنا في الشرق ، حيث هو واجب ان ننقذ عيون اطفالنا في الريف والتي يعميها الى الأبد طوفان مدمر من الذباب .. حيث يشرب اهلنا من ماء البرك الآسنة ، ومياه الطين .. مصبوباً فيها بليون بليون جرثومة دسنتاريا .. هنا .. في مكان الجهل ، حيث تصبح مبخرة مجرم نصاب ، دعوة الى الفلاحين لقراءة الطالع .. بين صفائح السمن والدجاج والبيض التي يحرم منها الفلاح نفسه وعائلته ليقدمها ثمناً لمعرفة مصير قطنه .

هنا .. في صميم الشرق الذي ينظر بنيه .. ينتظر شاعره الذي يغنى ويشارك بالفعل وبالدم ضد كل هذه القوى التي تؤخره وتدمره وتهلكه ..

ضد المستعمر والمستغل الذي يقضي ليله في العاصمة ، يمنح النادل اليوناني الف جنيه ، ويتبرع لجمعية اصدقاء الكلاب بألف اخرى ، ويخسر فوق مائدة البوكر الفاً ثالثة .. بروح رياضية .. ثم يناقش جابيه الشيطان في مليم ناقص ! . ضد الفقر والموت البطيء .. ضد استعمار (الكوكولا) (اللبن المعلب) و (النقطة الرابعة) .. وكل الاستعمار الاقتصادي الذي يدفع قرشاً .. ليسرق عشرة ..

ضد تجار الأسلحة .. والعين الأمريكية الواقفة في حذر .. في الشرق .. ضد كافة الأمراض والأوبئة التي تخلص من اكثرها الغرب ، فتخلق مناقشاً في الجمالية والامتثال واللامتثال

في الشرق .. هنا .. والزمان هو الآن .. والضحاياهم نحن . ! ! واجب ان ننبذ الجمالية ، وكل هذه القيم التي هي بعيدة عن التمثل الشرقي لها .. لأنها من عالم يختلف عن عالمنا .

ان الشاعر عندنا يقف في جهة ، والرجل في جهة اخرى . لأن الشاعر عندنا يفهم ان الشعر شيء وسلوكه الشخصي شيء آخر ..

ان شاعرنا ينفصل في داخله كياناً لا ينفصل ، ذلك لأنه عرف عن خطأ .. ان الشاعر هو اغنية .. وحسب ..

اما سلوك .. فهو شخصي بحت . ! ! ولكن . ! ! افنريد منهم ان يكتبوا لنا شقاءنا . ؟

كلا .. كلا ..

نحن نريدهم ان يغيروا شقاءنا .. ان يغنوه ، وان يغيروه . ان يكافحوا ضد الاستعمار ويغنوا كفاحهم .. ان ..

وان يكف احدهم في لحظة اكتشافه للزيف ، عن القاء الخطب واثارة المشاعر بقصيدة تمثيلية . ؟

نريده ان يكف عن تمزيق وحدته ، وان يبني من جديد عالمه الذي هو وعي وسلوك معاً ..

* *

اخيراً .. ان هذه الازدواجية تمثل خطراً نافذاً .. ليس في سلوك شعرائنا فحسب ، بل في سلوك ناثرينا ايضاً .. لأنها دلالة واضحة بعدم التمثل التي هي اخيراً :

فقدان وعي ...

انها قضية على طرف رمح .. على الطرف الزلق منه ..

القاهرة — محيي الدين محمد